حليمة قاجوج/ الصفحات: من 181 إلى: 192
الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر2022م
Available online at https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715

أدب المدينة الفاسدة، قراءة في رواية "أسفل قاع المدينة" لإيهاب عدلان

The literature of the corrupt city - a reading in the novel Down the bottom of the city by Ihab Adlan
La littérature de la ville corrompue - une lecture dans le roman Au fond de la ville par Ihab Adlan

الطالبة: حليمة قاجوج
أ د. كمال بولعسل
جامعة محمد الصديق بن يحي جيجل(الجزائر)
Halima.kadjoudj@univ-jijel.dz
Kamel.boulassel@yahoo.fr

تاريخ الإيداع: 2022/12/16 تاريخ القبول:2022/12/17 تاريخ النشر: 2022/12/31

الملخص باللغة العربية:

شهدت الرواية العربية المعاصرة تغيراتٍ كثيرة مست معظم جوانبها البنائية، حتى غدت ساحة للتأمل وفضاء رحبا لممارسة التأويل، نظرا لانفتاحها على خطابات متعددة، تجنح كلها نحو تمثيل الواقع في تقلباته الدائمة، خصوصا بعد الذي شهده العالم من اكتساح التكنولوجيا ميادين الحياة جميعها، ما أدى إلى تبلور مفاهيم جديدة مهدت لظهور تيمات مركزية، عمل الكُتّاب على استثمارها في كتاباتهم الشعرية والنثرية على السواء. وقد شكّل مصطلح "المدينة" بمفهومه الرمزي أبرز تلك التيمات وأكثرها حضورا، طارحا من خلاله الروائي أهم القضايا التي يعاني منها مجتمعه، في صورة درامية تجمع بين يوتوبيا الوعي الممكن وديستوبيا الوعي الكائن، سنحاول في هذه المداخلة تمثل مفهوم الديستوبيا Dystobiaفي رواية "أسفل قاع المدينة" لإيهاب عدلان، لنتعرف أكثر على أدب المدينة الفاسدة، كما جسده الراوي وأحمد ووليد أبطال الرواية بين أزقة وشوارع المدينة المحرمة؛ مدينة الدعارة والفجور وتعاطي الممنوعات.

الكلمات المفتاحية: أدب المدينة الفاسدة، ديستوبيا، المدينة، إيهاب عدلان.

Abstract :
The contemporary Arab novel has undergone many changes that touched most of its structural aspects, until it became an arena for reflection and a spacious space for the practice of interpretation, due to its openness to multiple discourses, all of which tend towards representing reality in its permanent fluctuations, especially after the world witnessed by the sweep of technology into all fields of life, which led to the crystallization of new concepts that paved the way for the emergence of central themes, which writers worked to invest in both poetic and prose writings. The term "city" in its symbolic sense has formed the most prominent and present of these themes, through which the novelist presents the most important issues that his society suffers from, in a dramatic form that combines the utopia of possible consciousness and the destoba of existing consciousness, the latter of which we represent in the novel "Down the bottom of the city" by Ihab Adlan, to learn more about the literature of the corrupt city, as embodied by the narrator, Ahmed and Walid the protagonists of the novel between the alleys and streets of the forbidden city, the city of prostitution, debauchery and the abuse of contraband.
Keywords: Literature of the Corrupt City, Destopia, Medina, Ihab Adlan

حليمة قاجوج/ الصفحات: من 181 إلى: 192
الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر2022م
Available online at https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715

مقدمة:

تعد الرواية المعاصرة بجميع تمظهراتها وأشكالها المتعددة، الجنسَ الأدبي الأمثل لتصوير الواقع المتناقض الذي يعيشه العالم حاليا، خاصة بعد التطور الهائل الذي شهدته المجتمعات الغربية وحتى الشرقية في جميع المجالات، فباتت الرواية مدخلا رئيسا «إلى تناول موضوعات شتى، في مجالات عدة، بعد الإقرار بتأثيرها الهائل، وتفاقم هذا التأثير الذي ترتب عليه نوع من "الاستئثار" بوسائط القوة المعاصرة»[1]، ما يحيل إلى تلك العلاقة الجامعة بين الرواية كجنس أدبي والمجتمع المتكون من عناصر متعددة بدايةً من الإنسان وما يشعر به اتجاه العالم، وصولاً إلى المكان متجسدا أكثر في صورة المدينة، مرورا بزمن الساعة المجرّد والمفتّت والمجزّأ[2].

وهذه العناصر المشكّلة للكيان الاجتماعي في صورته المعقدة هي أيضا عناصر لا يمكن الاستغناء عنها في أيّ عمل روائي كان، إذ لا يمكن تصور رواية مهما كانت مغرقة في الحداثة أن تتخلى عن شخصياتها أو الزمن الروائي، أو حتى المكان الذي تجري فيه الأحداث، هذا الأخير يتلخص بكونه «الكيان الاجتماعي الذي يحتوي على خلاصة التفاعل بين الإنسان ومجتمعه»[3]، إذ يحاول الروائي تجسيدها في عمله الروائي انطلاقا من تصوير أفضية بعينها لها تأثير كبير في خلخلة نظام الأحداث، وتحويل مشاعر الشخصيات الروائية كفضاء المدينة، وما يحتويه داخله من أفضية مغلقة كالمنزل والمقهى والغرفة، وأخرى مفتوحة كالشارع والحديقة ومدينة الملاهي وغيرها.

فالمدينة كبناء فني مترابط الأجزاء تمكّن الكاتب من الخلق والإبداع، لأنّها عالم متكامل تتفاعل فيه العناصر الروائية جميعها، وهذا ما يجسد أكثر أوجه العلاقة بين الرواية والمدينة، التي حاول الكتاب استثمارها كلٌّ حسب وجهة نظره؛ فالروائي حينما يختار المدينة المعروفة لديه، يجسد من خلال اختياره ذاك رؤيته الخاصة للمكان، وربما كانت معظم الكتابات الروائية «نموذجا للاغتراب متعدد المستويات، في المدينة الحديثة التي ترسم –بعلاقاتها وبأمكنتها- صورة للخواء الكامل الذي يوازيه هذا الراوي المتوحد، الوافد إلى المدينة من عالم غير عالمها، أو القادم إليها بعد سفر، الضائع بين شوارعها وميادينها ومقاهيها، المكابد فراغها وخواءها والموت – الفعلي أو المجازي- الذي يخيم عليها، المتصل بشخوصها والمنفصل عنهم، والواقف –في اتصاله وانفصاله معا- على شرف جرف هائل مفتوح بينه وبينهم، المستوحش في زحامها، المعزول عن زمنها الراهن، المستسلم لنوع من "اللامبالاة" كأنما "يتفرج" على المدينة، على من فيها وما فيها، وعلى نفسه، من بعيد»[4]، في حين قد نرى تأثرا قويا وانبهارا ملفتا بجمال وعادات أهل المدينة عند الروائيين الذين غادروا بلادهم نحو دول أوروبا وأمريكا، نظرا لما وجدوه هناك من حرية وتطور هائل والتزام قوي ببنود الديمقراطية ومبادئ العدالة الاجتماعية.

ولتوضيح هذه الفكرة أكثر سنستدعي مفهوم المدينة الفاضلة (يوتوبيا) Utobiaبكل ما يحمله من دلالات الخير والسمو والمثالية كما جسدها أفلاطون صاحب الجمهورية الفاضلة، ومفهوم المدينة الفاسدة (ديستوبيا) الذي يحيل إلى الفساد بجميع تمظهراته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، لتصبح المدينة حاضنة جميع

حليمة قاجوج/ الصفحات: من 181 إلى: 192
الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر2022م
Available online at https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715

المتناقضات، ومعبرةً بدقةٍ متناهيةٍ عن أفكار ساكنيها التي تظهر جليا بين طيات الرواية؛ التي سعت –كما سعت فنون أخرى- إلى التعبير عن ذلك العالم «بتأثيراته المتناقضة وصوره المختلفة، التي صاغ تعارضها واختلافها تعارض العناصر داخل عالم المدينة ثم تعارض المواقف منها، وقد تراوحت هذه المواقف بين حدين متباعدين؛ من التغني بعالم المدينة إلى نشدان الهرب منه، ومن الاستسلام لغوايته إلى التعبير عن رفضه، من النظر إليه على أنه سبيل الرقي والتحضر إلى التأكيد أنه تكريس لاغتراب الإنسان ولانفصاله عن الطبيعة ونأي به عن فرص الحياة الحقيقية»[5]، فنرى الروائيين في مواضع كثيرة يضمّنون كتاباتهم شعورا بالإحباط «نتيجة صراع أساسي بين القيم: بين الذات والمجموع، بين الحرية والسلطة، بين التنافس الحاد والمحبة الأخوية.. إلخ، وأن الفرد يحس أن قيما عزيزة على نفسه قد تحولت عن طبيعتها، وفي النفور من هذا الوضع يحاول المرء أن يجد لنفسه مهربا أو مسربا»[6] نحو الطبيعة أو العودة إلى الريف، أمّا الموقف المعارض لهذا فغالبا ما يختار الهجرة نحو المدن الصناعية الكبرى رغبة في اكتشاف المجهول هناك، متأثرا بكل ما يشاهده، راغبا في احتضان المعنى المخالف.

هذا التضارب في المواقف بين الروائيين يطرح العديد من الإشكالات نحو حقيقة المدينة، وكيف تجلت ضمن الأعمال الروائية، بين مدينة تلفها المثالية –بالمفهوم المعاصر- من كل صوب، فيجد فيها الإنسان ضالته التي فقدها أيام كان يعيش في الريف أو الصحراء، وبين مدينة غامضة كئيبة تحيط بها النوازل من كل جانب، فتغدو ميدانا لتعريف الفساد بجميع عناصره ومجالاته، وللتعبير أكثر عن هذه المدينة الأخيرة تم انتخاب رواية **"أسفل قاع المدينة"** لإيهاب عدلان، لما فيها من تصرفات غير أخلاقية بالمفهوم الديني، والتي تتعارض مع مبادئ الدين والثقافة الشرقية الإسلامية، حاول الكاتب تمثلها في شخصية أحمد ووليد كما سنرى في الصفحات القادمة.

1) مفهوم المدينة الفاسدة:

تعددت تعريفات المدينة عند الباحثين في مجالات مختلفة كعلم الاجتماع والفن والاقتصاد، وهذا راجع إلى اختلاف رؤيتهم إليها، فجانب يركز على التضخم السكاني، وآخر على كيفية تسيير الأموال بين مختلف المواطنين، وجانب ثالث يركز على العمران وطريقة تشكيل الأزقة والشوارع كما هو الحال عند الفنانين والأدباء.

وهذا الاهتمام كله راجع إلى مكانة المدينة المتميزة في تاريخ الحضارة الإنسانية «إذ أن كلا منها يضم عددا كبيرا من السكان الذين يعيشون متقاربين ويكونون بعضهم مع بعض علاقات اجتماعية متعددة، ويتطلب تجمعهم نظما إدارية تؤمن النظام والاستنفار والأمن ونشر التقدم والازدهار»[7]، في رقعة جغرافية واسعة من الأرض «تأوي عددا كبيرا من السكان غير المزارعين الذين يعيشون على مبادلة المنتوجات المصنعة والخدمات الضرورية بمواد الطعام والمواد الخام»[8]، فيتفاعلون على شكل ظاهرة اجتماعية متعددة الوظائف «قوامها

إدارة طبقات من السكان يتوزعون وفق صفات اقتصادية وثقافية، في إطار قانون قوي واضح ينظّم العلاقات والأفعال، يضيف مرحليًا نتائج مادية وفيزيائية وأخرى معنوية فلسفية تراكمية في المكان»[9].

وإذا ما ركزنا على التشكيل الهندسي «تكون المدينة إطارًا مكانيًا شديد الازدحام، تضمّ مجموعة من البنايات المنتظمة تخترقها شوارع وممرّات مصفوفة تتقاطع ومشاهد الأزقة والساحات والمقاهي والحوانيت والمنازل والوجوه والرّوائح والعطور، لتشكّل إيقاعًا خاصًّا مختلفًا هو في جوهره مفهوم المدينة»[10]، تلك الساحة العارمة العامرة بمختلف الأجناس والطبقات، فتخلق نوعا من التجانس والانسجام بين أفرادها وقاطنيها، لتحقيق مصالحهم المختلفة.

من خلال ما تم ذكره سابقا يمكننا استخراج أهم الشروط التي يجب أن تتوفر في رقعة جغرافية ما كي نتمكن من إطلاق مصطلح **"المدينة"** عليها، وهي كالتالي:

- احتواء عدد كبير من السكان، لهم وظائف متعددة، إذ يتم استثمار قدراتهم المختلفة لتحقيق الاستقرار المادي والمعنوي داخل المدينة.
- توفر نظم إدارية تؤمّن النظام والاستنفار والأمن ونشر التقدم والازدهار.
- يقوم عمل سكان المدينة غالبا على مبادلة المنتوجات المصنعة والخدمات الضرورية بمواد الطعام والمواد الخام، وهذا ما يميز سكان المدينة عن سكان الريف أو القرية الذين يستثمرون الأرض الزراعية لجلب الرزق وتعليم الأولاد.
- وجود تعدد ثقافي بين أفراد المدينة، ما يجعل الإنسان المدني منفتحا على الآخر المختلف عنه دينا ولغة ولونا، محتويا ذلك الاختلاف لتحقيق المصالح والتعارف.
- لعل أهم ما يميز المدينة عن الريف هو ضيق المساحة بين الشوارع والأزقة والممرات، وتلاصق البنايات، حتى لا تكاد تجد مكانا خاليا من كل هذا، أو مستراحا تستجم فيه من ضجيج السيارات والمصانع، إلا ما تم هندسته لهذا الغرض، وهي الحدائق العمومية الضيقة المنتشرة في أماكن مختلفة من المدينة.

وتبقى المدينة رغم اختلاف تعريفاتها ذلك المكان الذي نعيش فيه، والذي بدوره يحدد هوياتنا وكياننا، وفيه تبرز ذواتنا الطامعة والطامحة إلى السيطرة والتحرر، فينتج عن ذلك خروج عن الطاعة أو تمرد على القواعد، وهنا فقط تمثُل جدلية الخير والشر، رغم اختلاف المعايير التي تحد كلا منهما بين الثقافة الشرقية والغربية، وهذا يؤدي إلى خلق نوع من التضارب بين القيم والمبادئ داخل الحيز المكاني الواحد، ما يستدعي وضع قوانين صارمة تحد من أفعال الشغب والفساد بجميع تمظهراته؛ هذا الفساد قد يتعدى نطاق الجدل بينه وبين قوى الخير الداعية إلى إصلاح المجتمع، فتغدو المدينة تبعا لذلك فضاء فاسدا يحتوي كل الأفعال غير المباحة التي

تصدر عن أشخاص لهم سوابق عدلية أو أخلاقية، فتدفعهم إلى أسفل قاع المدينة، حيث الرذيلة والجنس والمخدرات، وما سنقوم بفعله في الصفحات اللاحقة هو محاولة التركيز على الطابوهات المحرمة في الثقافة العربية لنتعرف أكثر على أدب المدينة الفاسدة.

2) أفضية المدينة الفاسدة:

1.2. الفضاء المفتوح:

- **منطقة سوبا الأراضي (أسفل قاع المدينة):**

تدور معظم أحداث الرواية في هذه المنطقة البعيدة قليلا عن الخرطوم عاصمة السودان «سكانُها ذوو وجوهٍ متعبةٍ وميتة، خارجون عن ذاكرة الدولة، لفظتهم المدينةُ فأثروا المكوث في القاع»[11]، الذي يحتضن جميع الأفعال الخارجة عن القوانين، فيعمل على تشريعها كخطاب إنساني ينشد التحرر عن طريق تعاطي الممنوعات وممارسة الجنس من أجل الاعتراف بالذات والسيطرة عليها.

وقد تعمّد الروائي وصفها على لسان الشخصية البطل الذي بالغ في استرجاع تاريخها القديم أيام الحرب وما انجرعنها من جروح نفسية، جعلت سكانها يرزحون في مستنقعات الرذيلة من أجل توفير الطعام واللباس، يقول الراوي: «فسوبا مُستودعٌ للممنوعاتِ. فيها بيوت الشكشِ وهو الاسم الشعبي لبيوت الدعارةِ. كما أن تجارَ ومروجي الدخانِ في كل مكانٍ، وأجودُ أنواع الخمور البلديةِ التي تُعد من تمرِ النخيلِ وتنعت بالعرقي نسبةً إلى عرقِ البلحِ»[12]، فممارسة الدعارة وتجارة الممنوعات هي من أنجع المهن التي يتوسل بها سكان هذه المنطقة لتحقيق الأرباح وإشباع رغباتهم، خاصة مع انعدام الرقيب الذي يعمل على توفير الأمن والاستقرار فيها، فغدت تبعا لذلك موقعا استراتيجيا للقتلة والمغتصبين «حتى أن بها شارعاً يسمى بشارعِ الموت لتواجدِ جثة أو اثنين به لأشخاص مقتولين كل صباح. وغالباً ما كانوا عائدين من بيت العرقي سُكارى فترصدهم قطاعُ الطرقِ المشهورون في تلك المنطقةِ، فسلبوهم ما عندهم بعد أن ضربوهم أو طعنوهم ليغادروا بعدها. لذلك لا يخرجُ أي شخصٍ بعد الساعة الثامنة مساءً إلَّا ويكون حاملاً معه عصاً أو فأسًا أو ساطوراً»[13]، وقد تم تصويرها عمدا بأسلوب منفرللقارئ الذي يتعجب من هذا التجميع الثلاثي لأفعال القتل والنهب والسكر في سياق واحد، ليدرك بعدها فداحة النتائج التي تنجم عن التهميش القصدي لبعض الأقطاب، فتنتمي رسميا إلى مناطق الظل أو كما وصفها الكاتب "أسفل قاع المدينة".

- **السوق (عندما تختلط الروائح بالخيبات):**

وصف الكاتب أسواق سوبا بشيء من الإطناب، حتى أنه تطرّق إلى ذكر فئة من النساء اللواتي يشتهين الشاي ويبعنه في الطرقات أو في حوانيت خاصة «هي عبارة عن غرفٍ طويلةٍ من الجالوص بها طاولة أعدها النجارُ أو الحدادُ خصيصاً لبائعةِ الشاي التي تجلس خلفها لإعداد طلبات الزبائن»، والمرأة العاملة في هذا المجال يجب

أن تتوفر فيها صفات جسدية معينة كي تستطيع استفزاز المشتري وسلب أمواله بأبسط طريقة، يكفي أن تكون لها «أردافٌ ممتلئةٌ ونهودٌ منتصبة وبارزة وقوامٌ جميل، ترتدي ثياباً كاشفةً لأماكنِ الجمالِ فيها»[14] لتفتح نوافذ الشهوة والرغبة الغريزية في كل من يطأ باب الدكان، فتراه جالسا متأملا في أجساد شبه عارية وحركات متمايلة، تغري الناظر إليها دون أن يظفر منها بشيء سوى كوب شاي ساخن، هنا تختلط رائحة الشاي برائحة الرغبة أولا ثم خيبة الانتظار ثانيا، وهذه أشد وطأة على الإنسان من التهاب لسانه نتيجة عدم تركيزه على درجة حرارة الشاي.

دون أن يغفل الكاتب في خضم ذلك الوصف الشكلَ الهندسي الذي تتميز به هذه الدكاكين والأسواق من حيث الضيق والاكتظاظ، يقول في ذلك: «أما أسواقها، فهي مكتظةٌ بكلِ أنواعِ البضائعِ وذات دكاكين متداخلة ومتلاحمة مع بعضها البعض. تتخللها شوارعٌ قصيرةٌ وضيقةٌ مثل متاهةٍ. فإن لم تكن من السكانِ الأصليين لن تستطيع سبر غورها ولأفضى بك الطريقُ إلى نفسِ النقطةِ التي بدأت منها»[15]، وعند التجول بين حوانيتها وحاراتها لابد من أخذ الحيطة والحذر، فلا تدري متى تخون الرائحة، ومتى يتحول نداء الباعة إلى شتائم وسباب تعلوه صيحات متتالية تنبئ بحرب شوارع قادمة، فتتحول رائحة التوابل والعطور والبهارات إلى روائح كثيفة من الغبار والعرق والدماء.

وهذه من سمات المدينة التي تكثر فيها روائح الخيبات المتكررة الناتجة عن الصراع المستمر بين قوى الخير والشر، هذه الأخيرة نتمثلها أكثر في الحروب التي دفعت بنساء هذه المدينة إلى النزوح نحو الأسواق «يعُسنّ الكسرةَ ويطبخن الطعام البلدي ويبِعنَهُ، وكذلك الطعمية والتسالي والفول المدمس وغير ذلك. وتساوت ما تسمى بالمرأة الحرة مع تلك المدعوة بالخادم في الأسواق ومجمعات العمل»[16]، وبالتالي تصدعت مفاهيم التصنيف الاجتماعي للعمل، وأشاح أصحاب الذهنية الاستعلائية وجوههم المتكبرة التي تصنّف الناس وفق معايير ظالمة، لا يقوى على تحملها إلا أصحاب النفوس الضعيفة والأجسام المترهلة.

- **الجامعة (حاضنة العلم ومصيدة الفتيات):**

استعمل الكاتب فضاء "الجامعة" ليفضح الكثير من الطابوهات المتخفية وراء حرمة المكان، ذلك المستودع الذي يخفي بداخله خبائث النوايا، والتي قد تظهر للعيان بالتمعن أكثر في تصرفات الطلاب الذكور، الذين يحاولون التملص من سلطة الأستاذ والدرس ويقصدون الكلية المشهورة « بطالباتها الجميلات من الطبقة البرجوازية»[17]، أو يجلسون إلى جانب بعضهم البعض مستعرضين عضلات لسانهم في التعليق حين تمر فتاة ذات مؤخرة وشفاه كبيرة، لينفجر البعض ضاحكا، ويذهب الباقي في عوالم أخرى قد تنتهي بهم في آخر المطاف في إحدى زوايا الحمام الجامعي.

حليمة قاجوج/ الصفحات: من 181 إلى: 192
الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر2022م
Available online at https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715

وهنا يظهر التأثير القوي الذي يخلفه الرفيق المتهور في الأنا المترددة، خاصة الطالب الجديد الذي يحاول التأقلم في مكان لا ينتمي إليه، وأبرز من يمثل هذا النموذج هو شخصية وليد، الذي ترك السعودية وراءه ليدرس الهندسة في جامعة الخرطوم، لينحاز بتأثير قوي من رفاقه أحمد وراوي الحكاية إلى أسفل قاع المدينة، فلم ينفعه بعد ذلك لا مستواه العلمي ولا أمواله الطائلة ولا نسبه الشريف في التملص من قدر محتوم كان سببا في تشكيله، لأجل هدف واحد هو إثبات الرجولة بالمفهوم الشرقي للمصطلح، فوقع نتيجة لذلك ضحية للفساد الأخلاقي والترهل الفكري الذي يصحب النظرة القاصرة في العواقب المستقبلية التي قد تنجم عن العجلة المفرطة في اتخاذ أبسط القرارات.

- **الشارع (بين لهفة الزائر وخوف المقيم):**

يمثل الشارع كفضاء مفتوح «صحراء المدينة، وجزؤها الزمني، وحياتها الدائبة المتحركة، ولولب بعدها الحضاري، لامتداده، طاقة على مد الخيال، ولانعطافاته تحولات في الزمان والمكان، لسعته رؤية ريفية، مدنية، ولضيقه رؤية المدن الصغيرة الوسطية، ولساكنيه حرية الفعل وإمكانية التنقل، وسعة الاطلاع والتبدل، ولذا فعدم استقراره هو استقرار آخر، هو التكوين الذي بدونه لم يصبح للشارع معنى»[18]، وهو في الرواية نموذج للانفتاح والتشارك، ففيه يعبر الناس عن أفراحهم وأتراحهم، وفيه يقيمون «احتفالاتهم ومآتمهم ورقصهم. فرح في زواج أو إنجاب طفل، احتفال لتوديعٍ روح عزيزٍ قد مات في ليلة رحيله الأربعين»[19]، إذ تجتمع فيه كل المشاعر التي يختلف التعبير عنها من مقام إلى آخر، وهو عند "وليد" الشخصية الخائفة والمترددة، مكانٌ لممارسة فن التعجب خاصة عند رؤيته «أطفال النوبة يلعبون عراة على الشارع، وقد رسم الغبارُ مع العرقِ على أجسادِهم خرائطَ لعوالم مجهولة. ضلوعهم بارزة لفرط نحولِهم، وبطونهم منتفخة من الطوحالِ. فهو لم ير في حياتهِ عالماً بهذا البؤسِ اللهم إلاَّ في نشرات الأخبار»[20].

وهذا يحيل إلى الأوضاع المتدنية التي يعيشها أفراد هذه المدينة المنسية الغارقة في وحل الرذيلة والخوف، حيث الممرات غير آمنة، والمسالك في عمومها خالية إلا من قطاع الطرق والمتسولين، يقول الراوي واصفا ذلك: «اندهشنا أنا وأحمد، إن المبلغ كان كبيراً جداً متجاوزاً حتى حوجتنا. إضافةً إلى أن الأشخاص الذاهبين إلى سوبا الأراضي أو داخلها لا يحملون مثل هذا المبلغ في طريقهم. فهو يُعرضُ صاحبهُ إلى مشكلاتٍ كثيرة قد تتسبب ببساطة في قتله. سحبتهُ من يدهِ خارج الزحمةِ حتى لا يرانا النشالون الذين يكثرون في هذه المنطقة، وأخبرته أن هذا المال قد يتسبب لنا بالمشكلاتِ، وطلبتُ منه أن يسلمهُ لأحمد الذي قضى فترة من حياتهِ هناك، ويستطيع أن يتصرف إن حدث شيء. بدأ مقتنعا فسلم كل المال الذي لديه لأحمد»[21]، فزلة واحدة تكفي لقطع رؤوس عديدة من أجل نهب الأموال والاستمتاع بها خارج نطاق القانون، ويكون ذلك إما بتعاطي الممنوعات أو ممارسة الجنس في غرف الدعارة المهيأة خصيصا للاستمتاع الشخصي.

2.2. الفضاء المغلق:

- **المنزل (مقر الشهوة ومستودع الغريزة):**

المنزل أو البيت هو عالم الإنسان الأول «قبل أن "يُقذَف بالإنسان في العالم" كما يدعي بعض الفلاسفة الميثافيزيقيين المتسرعين فإنه يجد مكانه في مهد البيت. وأي ميثافيزيقيا دقيقة لا تستطيع إهمال هذه الحقيقة البسيطة لأنها قيمة هامة، نعود إليها دائما في أحلام يقظتنا. الوجود أصبح الآن قيمة. الحياة تبدأ بداية جيدة، تبدأ مسيجة محمية دافئة في صدر البيت»[22]، فهو الركن الشديد الذي يأوي إليه الإنسان في آخر يومه لأخذ قسط من الراحة ولقاء الأحبة من أهله، ويبقى في كل أحواله حاضن الأفكار الغريبة والفئات المختلفة من المجتمع، تلك المتدنية أو الراقية، الداعرة أو الشريفة، الفقيرة أو الغنية...

والمنزل في الرواية التي بين أيدينا ما هو إلا مكان للاسترخاء واللعب المحرم بين أحضان داعرات متمرسات، يتقنّ فنّ الإغراء ومداعبة الرجال، وهذا العمل أفقده جزءا كبيرا من كرامته التابعة لساكنيه، ولم تعد للباب حرمة، إذ يمكن لكل رجل راغب في ممارسة الجنس دفع الباب بقوة دون أخذ إذن بالدخول، وأصبح تبعا لذلك فضاء مفتوح الدلالة على كل معاني الذل والعذاب والقهر، خاصة إذا فقد المنزل حراسه المدافعين عنه مثل منزل علوية المتكون من «ثلاث غرف من الجالوص، إحدى الغرف خاصة بها وحدها لا تسمح لبناتها باستخدامها مع الزبائن. وغرفتين ملتصقتين تستخدمهما بناتها مع الزبائن يفتحان على فناء كبير به راكوبة في أحد زواياه وشجرة لالوبة وارفة الظل، يجلسن عادةً تحتها يمشطن شعورهنّ ويتبادلن النميمة حول الزبائن»[23]، وفي هذا المنزل فقط تلتقي النكرات، وتصبح الرغبة الجامع الوحيد بين تلك الذوات المختلفة في كل شيء، حتى في درجات تفاعلها مع الحدث.

ولعل الأبيات الشعرية التي قالها الراوي بعد انتصار وليد اللوطي على ضعفه الجنسي بعد ثاني ممارسة جنسية له في حياته، تفصح عن الكثير من المكبوتات وتحيل إلى معاني مشتتة وترهل فكري مشوه، نتج عنه بوادر حملٍ حقيقي أودى بأبطال الرواية في آخر داهية، يقول الراوي: «أمعنت النظر في وليد وهو ينفثُ دخانَ السيجارةِ، ويرتشِف القهوةَ بمتعةٍ فريدةٍ، وأزرار قميصهِ الثلاثة الأولى مفتوحة. أدركت حينها، وحينها فقط أنه مثل الكثيرين الآن الذين رحلوا إلى أسفل قاع المدينة !

حيثُ كلِ أنواعِ الشراب..

ورائحة الجنس المُخمرِ،

وأساطير البطولة، هناك..

حليمة قاجوج/ الصفحات: من 181 إلى: 192
الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر2022م
Available online at https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715

حيثُ تُناجي الأماني بالمخيلةِ.. وتموتُ الأشياء»[24].

- **داخلية السكن الجامعي (عندما يسيطر الخيال على الموقف):**

وصفُ الجامعة يقتضي من الكاتب ذكر داخلية السكن الجامعي، فهي المنفذ السريع لسبر أغوار الطلاب داخل ملاجئهم المؤقتة، وأصبحت مع أحمد والراوي موقعا هاما لإشباع رغبات الخيال، خاصة عندما يقصدون الجانب الخلفي للمسرح، هناك فقط تقام أجمل المسرحيات، إذ يغيب الرقيب في حضور سطوة المخدر، وتطفح مواضيع كثيرة على سطح الذاكرة «لا تتأذر أجزاؤها إلا تحت سيجارة الدخان»[25]، وهذا يعبر عن فعل الإدمان الذي يعاني منه كل من شخصيات الرواية حتى الداعرات اللاتي يتبادلن السجائر بينهن بشيء من الاحترافية والمهارة، يقول الراوي: «كنا نعشق وهم البنقو وطقوسه، فبعد النفسِ الثالث نكون قد دخلنا عالماً آخر لا مكان فيه للأحزان. نبتكر النكتةَ من أي شيءٍ، نسخر من كلِ شيءٍ، ولا نرى شيئاً حقيقياً سوى ذواتنا وما عدانا عبارة عن كرتون لرسومٍ متحركة. بعد أن ننتهي من تدخين سيجارة كاملة، يكون تفاعل خيالنا إلى حده الأقصى، وهنا نستطيع أن نجلب سور الصين العظيم أمامنا ونهدمه بإصبعنا الأصغر لنشيده من جديد. نتكلم عن الشعر والموسيقى، نحسُ القصيدةَ أضعاف ما كنا نحسها في وعينا الموضوعي العادي، نذكر عظماء التاريخ ونؤسطرهم أضعاف ما سمعنا عنهم أو قرأنا»[26].

هذا مثال بسيط لما قد تفعله المخدرات في عقل صاحبها، حتى أنها تلغي رؤيته المنطقية للأشياء، فتغيب شخصية الطالب الذي قصد الجامعة طالبا للعلم والمعرفة، ويتحول إلى مجرد لاهٍ متقلب المزاج، يضحك تارة ويغيب عن العقل تارات أخرى دون أن يعي ما يدور حوله، ولكنه رغم ذلك يبقى متوجسا من أقدام الحرس الجامعي التي تظهر بين الفينة والأخرى فتسلبهم تلك المتعة وتحولها إلى جحيم قد لا ينتهي إلا بعد أربعة أيام أو أكثر.

- **الحمام (الحل الأنسب عند فقدان الشجاعة):**

تطرق الكاتب إلى ذكر الحمام عندما تعرض إلى تعداد العقد النفسية التي تخلفها العزلة في نفس الإنسان، خاصة في الأماكن التي يفصل فيها الرؤساء بين الجنسين، وما ينتج عن ذلك من خيبات أمل متكررة، قد تؤدي في الأخير إلى ممارسة العادة السرية والإدمان عليها، لإشباع نفس تواقة إلى ممارسة الجنس ولكنها لم تستطع ذلك لوجود حدود مانعة تحول دونها، يقول الراوي: «شطح ذهني بعيداً.. تخيلتُ شاباً في مقتبل العمرِ داخلَ الحمامِ يفرُك صابونةً في يدهِ حد اللزوجةِ، ثم يمسك عضوهُ بكفهِ المتصوبنةِ ويُحركها جيئةً وذهاباً عليه إلى أن يقذف»[27]، وهنا يصبح الحمام الملاذ الآمن لكل مدمن عاجز عن إبراز رجولته أمام حسنائه المتخيلة.

حليمة قاجوج/ الصفحات: من 181 إلى: 192
الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر2022م
Available online at https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715

وقد يتعدى الأمر ذلك إلى حالات مرضية مثل العصاب والهيستيريا ونوباتها المعروفة التي تُفسر في الثقافةِ الشعبيةِ أنها مس من الجانِ أو الشيطان، خاصة في المجتمعات «التي يُحرم ويُجرم فيها الجنس خارج المؤسسة النمطية للزواج، وتُقمع العاطفة بذرائع دينية، لا يتحقق فيها بالضرورة هذا الإشباع ويظهر الاختلال بأشكالٍ مختلفة»[28]، وفي هذا ملمح من الكاتب يحيل إلى تأييد فكرة التحرر الجنسي ونقد المبدأ الديني الذي يرى في العفة والتستر وسيلة لتهذيب الشباب وتحصينهم.

خاتمة:

بعد أخذ ورد بين عوالم المدينة الفاسدة، نحط الرحال عند أهم النتائج التي تم الوصول إليها، ويمكن استعراضها كالتالي:

- المدينة كبناء فني مترابط الأجزاء تمكّن الكاتب من الخلق والإبداع، لأنّها عالم متكامل تتفاعل فيه العناصر الروائية جميعها، وهذا ما يجسد أكثر أوجه العلاقة بين الرواية والمدينة، التي حاول الكتاب استثمارها كلٌّ حسب وجهة نظره.
- تقوم دعامة المدينة في عمومها على ثنائيتين تجعلنا نستدعي مفهوم المدينة الفاضلة (يوتوبيا) بكل ما يحمله من دلالات الخير والسمو والمثالية، ومفهوم المدينة الفاسدة (ديستوبيا) الذي يحيل إلى الفساد بجميع تمظهراته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، لتصبح المدينة حاضنة جميع المتناقضات، ومعبرةً بدقةٍ متناهيةٍ عن أفكار ساكنيها التي تظهر جليا بين طيات الرواية.
- تعددت تعريفات المدينة بين الباحثين في مجالات مختلفة كعلم الاجتماع والفن والاقتصاد، وهذا راجع إلى اختلاف رؤيتهم إليها، فجانب يركز على التضخم السكاني، وآخرٌ على كيفية تسيير الأموال بين مختلف المواطنين، وجانب ثالث يركز على العمران وطريقة تشكيل الأزقة والشوارع كما هو الحال عند الفنانين والأدباء.
- تبقى المدينة ذلك المكان الذي نعيش فيه، والذي بدوره يحدد هوياتنا وكياننا، وفيه تبرز ذواتنا الطامعة والطامحة إلى السيطرة والتحرر، فينتج عن ذلك خروج عن الطاعة أو تمرد على القواعد، وهنا فقط تمثُل جدلية الخير والشر، رغم اختلاف المعايير التي تحد كلا منهما بين الثقافة الشرقية والغربية.

قائمة المصادر والمراجع:

- **الكتب العربية والمترجمة:**

1. إحسان عباس: اتجاهات الشعر العربي المعاصر، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط3، 2001.
2. إيهاب عدلان: أسفل قاع المدينة، أوراق للنشر والتوزيع، السودان، ط2، 2015.
3. حسن حمودة: الرواية والمدينة نماذج من كتاب الستينات من مصر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، د.ط.
4. غاستون باشلار: جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1984.
5. مجموعة من المؤلفين: المدينة والحياة المدنية، ج1، بغداد، العراق، د.ط، 1988.
6. ياسين النصير: الرواية والمكان، دار الحرية للطباعة، بغداد، العراق، د.ط، 1986.

- **المجلات العلمية:**

1. عيسى بلكرفة: "سرديَّة العمران وبنائيَّة المدينة في رواية الفاجعة السورية –قراءة في ثنائية خالد خليفة "مدح الكراهية" و"لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة"-، **مجلة علوم اللغة وآدابها**، كلية الآداب واللغات، جامعة حمه لخضر الوادي، مج13، ع2، 15-09-2021.
2. ياسر عابدين: "مفهوم الفضيلة في مصطلح المدينة"، **مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية**، سوريا، مج28، ع1، 2012.

هوامش البحث:

[1] حسن حمودة: الرواية والمدينة نماذج من كتاب الستينات من مصر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، د.ط، 2000، ص21.

[2] المرجع نفسه، ص27.

[3] ياسين النصير: الرواية والمكان، دار الحرية للطباعة، بغداد، العراق، د.ط، 1986، ص ص16،17.

[4] حسن حمودة: الرواية والمدينة نماذج من كتاب الستينات في مصر، ص27.

[5] المرجع نفسه، ص23.

[6] إحسان عباس: اتجاهات الشعر العربي المعاصر، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط3، 2001، ص90.

[7] مجموعة من المؤلفين: المدينة والحياة المدنية، ج1، بغداد، العراق، د.ط، 1988، ص5.

[8] المرجع نفسه، ص ص15،16.

[9] ياسر عابدين: "مفهوم الفضيلة في مصطلح المدينة"، **مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية**، سوريا، مج28، ع1، 2012، ص155.

[10] عيسى بلكرفة: "سرديَّة العمران وبنائيَّة المدينة في رواية الفاجعة السورية –قراءة في ثنائية خالد خليفة "مدح الكراهية" و"لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة"-، **مجلة علوم اللغة وآدابها**، كلية الآداب واللغات، جامعة حمه لخضر الوادي، مج13، ع2، 15-09-2021، ص155.

[11] إيهاب عدلان: أسفل قاع المدينة، أوراق للنشر والتوزيع، السودان، ط2، 2015، ص8.

[12] المصدر نفسه، ص10.

[13] المصدر نفسه، ص10.

[14] المصدر نفسه،ص12.

[15] المصدر نفسه، ص10.

[16] المصدر نفسه، ص16.

[17] المصدر نفسه، ، ص19.

[18] ياسين النصير: الرواية والمكان، ص114.

[19] إيهاب عدلان: أسفل قاع المدينة، ص60.

[20] المصدر نفسه، ص60.

[21] المصدر نفسه، ص58.

[22] غاستون باشلار: جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1984، ص38.

[23] إيهاب عدلان: أسفل قاع المدينة، 31.

[24] المصدر نفسه، ص115.

[25] المصدر نفسه، ص18.

[26] المصدر نفسه، ص6،7.

[27] المصدر نفسه، ص21.

[28] المصدر نفسه، ص52.